



العاطفة الشعرية عند الناقد خليفة التليسي

د. محمد سليمان بن عبدالحفيظ*

المقدمة:

يعد الناقد خليفة التليسي من أبرز الأدباء والكتاب الليبيين الذين برزوا على الساحة الثقافية في ليبيا خلال القرن العشرين، والذين تحملوا مسؤولية وعبء النهوض بالحياة الثقافية في ليبيا، وبخاصة في جوانبها الأدبية والفكرية والاجتماعية.

ويمثل الجانب الأدبي في مسيرة حياة التليسي الثقافية، الجانب الأبرز في ميوله واهتماماته، متمثلاً في الإبداع، والنقد، والترجمة، والاختيار، التي تركزت في فني الشعر والقصة.

ويأتي نقد الشعر في مقدمة اهتمامات التليسي الأدبية، المتمثلة في كتابيه: الشابي وحران، ورفيق شاعر الوطن، وفي مقدمة كتابيه: قصيدة البيت الواحد، ومختارات خليفة محمد التليسي من روائع الشعر العربي، وفي العديد من المقابلات والمقالات الصحفية، التي جمع جزءاً منها في كتابيه: رحلة عبر الكلمات، ومن الحصاد الأول، بينما بقي جزء آخر منها لم يلق طريقه للنشر حتى الآن، لخصها الناقد مصطفى جحيدر في كتابه: خليفة محمد التليسي ناقداً وأديباً، وعرض مقتطفات منها.

وتعد العاطفة الشعرية قضية من قضايا النقد الأدبي الحديث، التي دارت بشأنها العديد من الحوارات والنقاشات، بين الأدباء والنقاد، واختلفت حول تقدير أهميتها الاتجاهات والمذاهب الأدبية والنقدية في العصر الحديث.

والبحث في موضوع العاطفة الشعرية عند الناقد، هو في جوهره بحث في ماهية الشعر ووظيفته، لأن العاطفة ليست عنصراً ملموساً يمكن ملاحظته أو تصوره منفصلاً عن بقية عناصر الشعر الأخرى.

وترجع أهمية هذا البحث، إلى كونه يأتي في إطار التعريف بالنقد الليبي المعاصر، والكشف عن طبيعته وجوانبه المختلفة، كي ينال المكانة التي تتناسب مع الجهد المبذول فيه، وهو واجب وطني ينبغي التنبه له والعمل عليه.

* كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية - الجامعة الأسمرية الإسلامية..

وقد تبلور اهتمامي بالبحث في موضوع العاطفة الشعرية، ومواضيع أخرى تهتم بالحركة النقدية في ليبيا، أثناء قيامي بتدريس مقرر النقد الليبي الحديث لطلبة الدراسات العليا، بقسم اللغة العربية بالجامعة الأزهرية، شعبة الأدب والنقد، حيث لفت نظري ما كتبه الناقد خليفة التليسي في نقد الشعر، من ثروة نقدية، تمثل مجالا خصبا للبحث والدراسة.

ويهدف البحث إلى الكشف عن طبيعة العاطفة الشعرية عند الناقد خليفة التليسي، وأهميتها، ومكانتها بين عناصر الشعر الأخرى، وعلاقتها بهذه العناصر، ودورها في تحديد ماهية الشعر والشاعر وصفاتها. ويعتمد البحث على المنهج التحليلي، المعني بجمع النصوص النقدية ذات العلاقة، وعرضها، وتحليل أجزائها وعناصرها، ومحاولة تركيبها في مفاهيم وتصورات.

العرض والتحليل:

كلمة العاطفة هي كلمة عربية مأخوذة من الفعل الثلاثي (عطف) لكنها لم تعرف أو ترد في المعاجم اللغوية بدلالاتها الشائعة لها في الأوساط الأدبية والنقدية في هذا العصر، إلا أنها ألمحت لها من بعيد. جاء في اللسان: "وعطف عليه يعطف عطفًا: رجع عليه بما يكره، أو له بما يريد. وتعطف عليه: وصله وبره. وتعطف على رحمه: رفق لها. والعاطفة: الرحم ... وعطفت عليه: أشفقت ... والعطوف: المحبة لزوجها. وامرأة عطيف: هيئة لينة ذلول مطواع لا كبر لها"⁽¹⁾.

ولم يرد مصطلح العاطفة في النقد العربي القديم بمفهومه الحديث في النقد الأدبي، لكنه ظهر ببدايات تشير إليه، ذكرها ابن قتيبة تحت مسمى دواعي الشعر، فقال: " وللشعر دواع تحت البطيء، وتبعث المتكلف، منها الطمع ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب"⁽²⁾.

بينما أوردها ابن رشيق تحت مسمى قواعد الشعر، فقال: " وقالوا: قواعد الشعر أربعة: الرغبة، والرغبة، والطرب، والغضب؛ فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرغبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون المهجاء والتوعد والعتاب الموجع"⁽³⁾.

(1) لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، ط1، 1410هـ. 1990م، مادة: عطف.

(2) الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، قدم له: الشيخ حسن تميم، راجعه وأعد فهارسه: الشيخ محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط3، 1407هـ. 1987م، ص34.

(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني حقيقه وفصله وعلق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1401هـ. 1981م، 120/1.

وتعرّف العاطفة في الأدب والنقد بأنها "حالة شعورية تندفع من النفس البشرية إثر انفعالها بحدث تراه أو تسمعه، أو بمشهد يؤثر فيها، وهي تقابل العقل ولا توافقه، فما يراه العقل غير ما تهواه العاطفة، والعاطفة مرتبطة بالشعور الإنساني، ولا تنفصل عنه مهما كان الإنسان عنيدا في إظهار مشاعره ... وآفاق العاطفة في الأدب رحبة، فهناك عاطفة وجدانية، وعاطفة قومية، وعاطفة وطنية، وعاطفة إنسانية، حتى ما يكتبه الكاتب وينظمه الشاعر من غير دوافع شعورية إنما يكتبه بعاطفة فنية"⁽¹⁾.

وقد وضع النقاد في هذا العصر عدة مقاييس تقاس بها العاطفة، منها: الصدق، والصحة، والقوة، والحيوية، والثبات، والاستمرار، والتنوع، والسمو⁽²⁾. وصنفوها ضمن عناصر الأدب الرئيسية، هي: العاطفة، والمعنى، والخيال، والأسلوب⁽³⁾. أو العاطفة، والخيال، والفكرة، والأسلوب⁽⁴⁾. بينما صنّفها الناقد ميشال عاصي مع العقل، والمخيلة، ضمن القوى الأساسية التي يقوم عليها الإبداع الفني⁽⁵⁾.

والاختلاف في تصنيف العاطفة من قبل النقاد، لا يغير من قيمتها أو أهميتها في الشعر، فهي عنصر جوهري في الشعر لا يمكن إهماله أو التخلي عنه، وهي مع المعنى أو الفكرة أو الموضوع يمثلان عنصري المضمون، في حين يمثل الخيال والأسلوب عنصري الشكل.

والفصل بين هذه العناصر من قبل النقاد والدارسين، إنما هو لغرض الدراسة والبحث، أما في النص الشعري، فهي متداخلة ومتلاحمة، ليس من السهل الفصل بينها، أو تحييد بعضها عن بعض.

وتعد العاطفة من العناصر البارزة التي تعرض لها التليسي، وأكد على أهميتها في معظم كتاباته وأقواله عن الشعر وقضاياها وموضوعاته المختلفة، عبر سنوات نشاطه الأدبي والنقدي.

وزيادة في توضيح الموضوع، وتسهيل الوصول إلى نتائج ملموسة، فإن عرض الموضوع سيتم من خلال مبحثين رئيسيين، هما: العاطفة ووصف الشعر والشعر، والعاطفة وعناصر الشعر.

المبحث الأول . العاطفة ووصف الشعر والشاعر:

آثرت كلمة وصف هنا على كلمة تعريف، لأن ما قدمه التليسي من وصف للشعر لا أتصور أنه يرقى إلى مستوى تعريف الشعر الذي يحدد ماهيته وخصائصه التي يتميز بها عن غيره من الأجناس الأدبية، باستثناء

(1) المعجم المفصل في الأدب، محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1419هـ. 1999م، 612/2 . 613.

(2) ينظر: في النقد الأدبي، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، القاهرة، 1972م، ص116.108.

(3) ينظر: نفسه، ص97. والنقد الأدبي الحديث. أصوله واتجاهاته أحمد كمال زكي، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص84 . 150.

(4) ينظر: أصول النقد الأدبي، احمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط10، 1994م، ص32 . 34.

(5) ينظر: الأدب والفن، ميشال عاصي، منشورات المكتبة التجارية، بيروت، ط2، 1970م، ص187 . 195.

التعريف الذي قدمه للشعر في إطار البيت الواحد، ومع ذلك فهو تعريف للشعر في إطار معين، وليس تعريفا عاما للشعر يشمل البيت والمقطوعة والقصيدة.

فوصفه الشعر بأنه "في حقيقته لحظات نادرة في حياة الإنسان"⁽¹⁾. أو أنه تلك "اللحظات (المعجزة) في تاريخ الأمم والحضارات، وهو اللحظات (النادرة) في حياة الشاعر"⁽²⁾. الذي اعتبره الباحث مصطفى جحيدر مفهوما ضيقا جدا للشعر⁽³⁾، لا يعبران عن حقيقة المفهوم أو التعريف، وإنما هو وصف للشعر يعبر عن رؤية التليسي وإحساسه بأهمية الشعر وقيمه للشاعر والأمة.

ووصفه الشعر بأنه "فن رفيع لا يقدر عليه إلا من أوتي رهافة في الحس، ورقة في الشعور، ودقة في التفكير، ورحابة في الأفق، ولذلك فلا بد له من ثقافة فنية شاملة تضمن له الخلود"⁽⁴⁾. لا يمثل تعريفا واضحا للشعر يحدد ماهيته، لكن من الممكن أن نستنتج منه بطريقة ما، تعريفا للشعر.

فرهافة حس الشاعر، ورقة شعوره، ودقة تفكيره، ورحابة أفقه، تعني: قدرته على التعبير عن الأحاسيس المرهفة، والمشاعر الرقيقة، والأفكار الدقيقة، والأفق الرحبة، وهذا يعني: أن الشعر هو فن رفيع يعبر عن الأحاسيس المرهفة، والمشاعر الرقيقة، والأفكار الدقيقة، والآفاق الرحبة.

وسواء جاز هذا الاستنتاج أو لا، فإن التأكيد على أهمية العاطفة، واعتبارها عنصرا أساسيا من عناصر الشعر، أمر واضح لا لبس فيه، فالإحساس المرهف، والشعور الرقيق يمثلان العاطفة.

ويوحي هذا الوصف، أو التعريف المضمّر، أن رهافة الحس، ورقة الشعور، ودقة التفكير، ورحابة الأفق، تمثل الموهبة الشعرية، لأنه ربط القدرة على إبداع الشعر بها، كما توحي لفظة (أوتي) على أن الموهبة الشعرية لا تتأتى بالدربة والمران وحفظ الأشعار، وإنما هي منحة من عند الله سبحانه وتعالى، وهذا الاستنتاج يؤيده قول التليسي في وصف الشابي: "إنه صوت عميق، بقية من تلك القلة الخالدة من الشعراء والفنانين، الذين يغمسون أقلامهم وربشهم في الدماء، ويرسمون بدم قلوبهم قبل أن يرسموا بالألغاز والألوان، وتلك مزية لم تنلها إلا القلة التي اصطفاها الله لإبداع رسالة الفن، ورد الناس إلى الحياة الفنية الرفيعة، التي تجد فيها الشخصية الإنسانية امتدادها"⁽⁵⁾.

(1). قصيدة البيت الواحد، خليفة محمد التليسي، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1991م، ص43.

(2). الشعر الفن والشعر الوثيقة، خليفة محمد التليسي، صحيفة الفجر الجديد، طرابلس، 17 يوليو 1976م، عدد 1207، نقلا عن: خليفة محمد التليسي ناقدا وأديبا، مصطفى محمد جحيدر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ط1، 1395 و.ر. 1986م، ص51.

(3). نفسه.

(4). رحلة عبر الكلمات، خليفة محمد التليسي، مطابع الثورة العربية، طرابلس، 1974م، ص28.

(5). الشابي وجبران، خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، طرابلس. تونس، ط4، 1398هـ. 1978م، ص7. 8.

ووصفه الشعر بالفن، يؤكد صلته الوثيقة بالعاطفة، في مقابل لو اعتبره علما أو صناعة لكانت الصلة بالعقل وليس العاطفة.

وما دام الشعر فن فإن الشاعر فنان، والفنان من وجهة نظر التليسي هو "إنسان لا يخضع لغير عواطفه، ولا يستجيب لغير أحاسيسه، ولا يسير إلا على الدرب الذي يدفعه إليه وحيه وإلهامه"⁽¹⁾.

وإذا كان التليسي قد وصف الشعر في هذه المناسبة بالفن الرفيع، فإنه في مناسبة أخرى وصفه بأنه "أعلى مراتب الفنون الجميلة"⁽²⁾.

والفنون الجميلة، وإن اختلفت في وسائل وطرق التعبير، فإنها "تتفق جميعا في المنبع والمصب، في المصدر والغاية، جميعها تصدر عن النفس البشرية، وإلى هذه النفس تتجه، مهمتها نقل الاختلاجات والأجواء، وغايتها إثارة الخلدات وعقد الأجواء، في لقاء نفسي حميم بين المبدع وبين المتذوق والمشارك"⁽³⁾.

ولا يختلف الأمر في التأكيد على أهمية عنصر العاطفة، عند وصف الشاعر بالمغني والشعر بالأغنية في قوله: "فالشاعر مغن، والشعر أغنية، ولم يخلد منه إلا ما تغنت به الأجيال"⁽⁴⁾. أو عند وصف الشعر بالغناء والقصيدة بالأغنية في قوله: "فالشعر عندي غناء، والقصيدة عندي أغنية، ترتفع قيمتها وتعلو بما تعبر عن مشاعر وأحاسيس"⁽⁵⁾. هذا فضلا عما يثيره النغم من عواطف وانفعالات.

وهذا يعني أن ما تغنت به الأجيال، هو ما كان وثيق الصلة بالأحاسيس والمشاعر، وقوله: (ولم يخلد منه إلا ما تغنت به الأجيال) يعيدنا إلى قوله في الوصف السابق: (فلا بد له من ثقافة فنية شاملة تضمن له الخلود).

فإذا كان الشعر الخالد هو ما تغنت به الأجيال، والشعر الذي تغنت به الأجيال هو الذي أبدعه شاعر تزود بثقافة فنية شاملة، فكيف صار التزود بالثقافة الفنية الشاملة هو الضامن لخلود الشعر؟

إن التزود بالثقافة الشاملة عند التليسي، ترتبط بجانب من جوانبها بقضية الوحي والإلهام، والعبقرية والنبوغ في الشعر.

(1) من الحصاد الأول، خليفة محمد التليسي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ط1، 1398 و.ر. 1989م، ص167.

(2) رحلة عبر الكلمات، ص132.

(3) الفن والأدب، ص44.

(4) الشعر أغنية، خليفة محمد التليسي، صحيفة الصباح التونسية، عدد 1983/4/25م، نقلا عن: خليفة محمد التليسي ناقدا وأديبا، ص55.

(5) مختارات خليفة محمد التليسي من روائع الشعر العربي. المفردات، خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، طرابلس. تونس، 1991م، ص61.

فهو يؤمن بما توصل إليه العلم الحديث بشأن هذه القضية، المتمثل في رفض تلك التفسيرات الوهمية، التي تردّ الإلهام والعبقرية والنبوغ في الشعر إلى عوالم خفية كالجن والآلهة، ويرى أن مهمة الشاعر في الحالة هذه، لا تزيد عن مهمة الوسيط، وهذا برأيه تفسير مهين للشعراء قبل أن يكون مهينا للعلم والحقيقة، وأنه مثبت للهمم، ومخطم للعزائم، ومضلل للغايات، كما يرى أن الذين "يؤمنون بالإلهام أو التلقائية، ينسون الجهود الجبار الذي يبذل في الاستمتاع بهذه اللحظة، ينسون العناء الذي كان في اكتسابهم للإطار العام الذي يحيط بفنهم، وهذا الإطار شرط أساسي لكل إلهام، والزعم بأن الشعر أو الفن لا يحتاج إلى ثقافة شاملة، وتزود بالمعرفة والخبرة الإنسانية، زعم باطل لا يدل إلا على فساد في الفكر، فالإلهام كما يؤكد علم النفس مشروط بالتزود بالثقافة العميقة"⁽¹⁾.

ويأتي العكوف على قراءة دواوين الشعر القديم، ودراستها، وإطالة النظر فيها، عند التليسي . في مقدمة هذه الثقافة، لما لها من أثر ملموس على الشاعر "بل إنه من أعظم الوسائل التي تمد الشاعر بذخيرة من تجارب السابقين، وهي ثروة لو عرف كيف يتمثلها ويستثمرها لجاءت بالخير الوفير"⁽²⁾.

فهذه الثقافة برأي التليسي هي التي تمكن الشاعر من العناية بشعره وإجادته وإتقانه، ليضمن له الخلود، ولا يهتم بشيء بعد ذلك سوى "أن يحسن التعبير، وأن يضع مشاعره وعواطفه في القوالب الخالدة التي تعيش على الأزمان"⁽³⁾.

أما التعريف الذي قدمه للشعر في مقدمة كتابه قصيدة البيت الواحد، فهو تعريف للشعر في إطار البيت الواحد، وليس في إطار الأبيات المتعددة، أو القصائد الكاملة، وهذا واضح من كلامه. يقول التليسي: "قصيدة البيت الواحد يعتمد على مفهوم يؤمن بأن الشعر ومضنة خاطفة، ولحمة عابرة، ودفقة وجدانية، ولحن هارب، وأغنية قصيرة، يخلق تعبيره المكثف المركز الذي يستنفذ اللحظة الشعرية، ويحيط بها، وما زاد على ذلك فهو من عمل الصناعة والاحتراف"⁽⁴⁾.

فاعتبار التليسي الشعر لا يتجاوز الومضة الخاطفة، واللمحة العابرة، والدفقة الوجدانية، والأغنية القصيرة، إنما هو تأكيد على أن الشعر الحقيقي لا يتأتى لمبدعه إلا في لحظات نادرة عابرة، وهي تلك اللحظات التي يعود فيها الإنسان إلى نفسه، ليفرغ انفعاله ويعبر عن عاطفته، بدافع التجربة الذاتية وليس بدافع الصناعة والاحتراف، وفي ذلك تأكيد على أهمية البيت الواحد المكثف المركز الذي استوعب التجربة وجاء على قدرها

(1). من الحصاد الأول، ص 125.

(2). نفسه، 159.

(3). رفيق شاعر الوطن، خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، طرابلس. تونس، 1988م، ص 68.

(4). قصيدة البيت الواحد، ص 31.

دون زيادة، في مقابل القصيدة التي تجاوزت أبياتها مقدار التجربة التي يعبر عنها، وهذا يشير في الوقت نفسه إلى أهمية العاطفة، واعتبارها جوهر الشعر الذي ينبغي عدم تجاوزه إلى مرحلة التكلف والصناعة.

وهذا المفهوم الجديد للشعر بما يتضمنه من إشارة إلى العاطفة، واعتبارها من عناصر الشعر عند التليسي، لا يقف عند تعريف الشعر في إطار البيت الواحد، وإنما يتجاوزه إلى المثال الذي قدمه لقصيدة البيت الواحد من الأدب الشعبي، المتمثل في أغنية العلم. يقول عن هذه الأغنية: "وفي أدبنا الشعبي مثال هام ورائع على قصيدة البيت الواحد، هو أغنية (العلم) التي تعتمد على بيت واحد يعبر عن اللحظة الشعرية بكل أبعادها، هو قصيدة الشاعر ومقصده دون زيادة ولا نقصان وهو يقدم بهذا التكتيف والتركيز دليلاً على تحكم هذا المفهوم الفطري للشعر الذي لا يفسده التكلف والتصنع، وإنما يجري سمحاً هينا لنا موافقاً لطبع الشاعر ولحظته النفسية"⁽¹⁾.

كما يتجاوزه إلى التوضيح الذي قدمه لبيان مقصده من قصيدة البيت الواحد الذي ينفي فيه أي قيمة لمحتوى البيت ما لم يكن معبراً عن ذات الشاعر ومعاناته وحالته النفسية، أي: عن عاطفته. يقول التليسي في هذا التوضيح: "ونحن هنا عندما نتحدث عن قصيدة البيت الواحد، لا نعني بيت الحكمة، أو الأمثلة الوعظية السائرة، ولكننا نعني البيت الفني، الذي يتضمن جوهرًا شعريًا، سواء تمثل في صورة فنية رائعة، أو بيت شعري يحمل ذات الشاعر ومعاناته، وحتى الحكمة هنا تكون مقبولة إذا احتوت ذات الشاعر ولحظته النفسية"⁽²⁾.

ولأن المفهوم الذي قدمه التليسي للشعر يعد جديدًا على ما ألفه النقاد والكتاب الليبيون من دعوات تجديد الشعر، ومن مفاهيم وتعريفات حددت ماهية الشعر وعناصره النوعية والشكلية، فقد لاقى هذا المفهوم ردود فعل متفاوتة من قبل النقاد والمهتمين بالشعر في ليبيا.

فالناقد مصطفى جحيدر، اكتفى بعرض التعريف في إطار عرضه لما احتوته مقدمة كتابه قصيدة البيت الواحد من شواهد وبراهين على دعوته لقصيدة البيت الواحد، واعتبره تعريفًا لقصيدة البيت الواحد وليس للشعر⁽³⁾.

واعتبر الناقد سالم العوكلي هذا المفهوم يعبر عن رؤية التليسي للقصيدة الجديدة التي اعتبرها نابعة من مفهوم جوهرى للشعر مبني على العلاقة الفطرية بمواجس النفس البشرية لحظة التقاطها وتعميقها، والتحرر من

(1): قصيدة البيت الواحد، ص31.

(2): نفسه.

(3): ينظر: خليفة محمد التليسي ناقدًا وأديبا، ص125 . 129.

النظرة الصناعية الاحترافية، ولهذا قام بعرض هذا التعريف مرتين عند تناوله الرؤية النقدية للشعر عند خليفة التليسي⁽¹⁾.

وتقبل الناقد عبد الله القوييري هذا المفهوم للشعر، واعتبر التليسي قد وضع "يده على جوهر العملية الإبداعية، تلك العملية، التي تتداخل فيها جوانب كثيرة من النفع والواقع، من الذاتي الموضوعي"⁽²⁾. لكنه اعترض على تمثيله بأغنية العلم لتأكيد مفهومه للشعر، باعتبارها "لا ترقى إلى مستوى بيت من الشعر، وبالتالي فهي أعجز من أن تكون قصيدة في بيت واحد"⁽³⁾.

واعترض الناقد الطاهر بن عريفة على ما ذهب إليه التليسي "من اتخاذ اللحظة الشعرية مقياسا للعمل الأدبي في مجال الشعر، لأن هذه اللحظة تختلف من ناقد إلى آخر، ومن قارئ إلى آخر، ومن متذوق للشعر إلى متذوق آخر"⁽⁴⁾.

ونبه الناقد سالم العواسي إلى أن التليسي قد ركز "على الجانب المضموني في تحديده لمعنى الشعر، ولم يعط أهمية للجانب الفني"⁽⁵⁾.

وكما وصف التليسي الشعر، فقد وصف أيضا الشعراء، وأسبغ عليهم العديد من الصفات، كالعميق، والمعاصر، والعظيم، والكبير، وعند البحث عن ماهية هذه الصفات، يتضح بشكل أو بآخر أنها تتحدد عنده من خلال عنصر العاطفة بمختلف تجلياتها، ومدى تمثلها في شعر الشاعر.

فالشاعر العميق هو "الذي يطل بك على عوالم رحيبة من العواطف الإنسانية، والخوارج النفسية، ويطلعك على آفاق جديدة للقلب البشري، ويتخطى بنظرته العصر الذي يعيش فيه، ليعيش في وجدان الإنسان في كل زمان ومكان"⁽⁶⁾.

فهذا النص في وصف الشاعر العميق، وإن دل على أهمية عنصر العاطفة في الشعر، فهو أيضا يدل على أن الشعر العميق هو الذي يتخطى حواجز الزمان والمكان، أي: الذي يخلد عبر الأزمنة المتعاقبة والأمكنة

(1) ينظر: شعرية السرح السابح، سالم العوكلي، منشورات مجلة المؤتمر، طرابلس، ط1، 1370 و.ر. 2002م، ص68. 77.

(2) دراسات في الأدب، عبد الله القوييري، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ط1، 1986م، ص164.

(3) نفسه، ص167.

(4) التعريف بالأدب الليبي، الطاهر بن عريفة، منشورات دار الحكمة، طرابلس، ط1، 1997م، ص77.

(5) اتجاهات النقد الأدبي في ليبيا خلال النصف الثاني من القرن العشرين، سالم أحمد العواسي، إصدارات مجلس الثقافة العام، سرت، 2010م، ص51.

(6) رفيق شاعر الوطن، ص66. 67.

المختلفة، لكونه يعبر عن أعماق النفس الإنسانية، وما يختلج فيها من عواطف ومشاعر. وهذا الوصف ينطبق أيضا على الشعراء الممتازين، فهم "الذين انصرفوا إلى التعبير عن أعماق النفس الإنسانية"⁽¹⁾.

والعمق عند الشاعر الحديث والمعاصر من وجهة نظر التليسي، لم يقف عند حد التعبير عن أعماق النفس الإنسانية، وإنما تجاوزه إلى العمق في معاناة التجربة الشعرية بكل أبعادها الإنسانية، فمن صفات الشاعر الحديث والمعاصر أنه صار "إنسانا مثقفا، عميق المعاناة لمأساة الوجود الإنساني، وأهواله الكبيرة، وتعقيداته المتعددة"⁽²⁾.

وهذا الوصف لا ينطبق على معظم الشعراء الليبيين، لأن معظم شعرهم من وجهة نظر التليسي "مصاب (بفقر الدم) بفقر العاطفة الحارة، بفقر الومضة الذهنية، بفقر الهزة الشعورية، بالفقر إلى خفقات الوجدان ونبضاته، وهذه (الإصابة) هي علة جموده وخموده"⁽³⁾.

وفي ذلك إشارة إلى أن معظم شعراء ليبيا في تلك الفترة، هم شعراء الاتجاه التقليدي، لأن شعراء هذا الاتجاه هم من يفتقرون إلى العاطفة الحارة في شعرهم.

وإذا كان الشاعر الكبير على رأي التليسي "لا بد له من كون كبير من المشاعر الصاعدة والهابطة"⁽⁴⁾. فإن الشاعر العظيم هو الذي "تكون تجربته الشعرية من العوامل التي تساعدك على مضاعفة حياتك، إذ يريك الكون كما يبدو من خلال شعوره، فلا ينقل إليك صورته إلا مصحوبة بخلجات نفسه"⁽⁵⁾.

وإذا كانت العواطف والمشاعر عند التليسي تعتمد على التجربة الشعرية، فإن صدق هذه العواطف والمشاعر على رأيه، هو أيضا يعتمد على صدق التجربة الشعرية، فهو يعتبر الصدق "في الشعور، يأتي من صدق التجربة الشعرية التي يقتبسها الشاعر من أغوار نفسه، ليعكس فيها صورة الحياة، بحيث يعيش في قصيدته، وتكون جزءا حيا من حياته، لا يفرضها على نفسه فرضا استجابة لطبيعة التكلف، ورغبة في التصفيق والإطراء"⁽⁶⁾.

(1) رفيف شاعر الوطن، ص 67.

(2) رحلة عبر الكلمات، ص 54.

(3) نفسه، ص 42.

(4) نفسه ص 41.

(5) من الحصاد الأول، ص 162.

(6) - رحلة عبر الكلمات، ص 145.

والصدق في التعبير عن التجربة عند التليسي، سبب من الأسباب التي ترفع من مكانة الشاعر، وتجعله من المحبوبين. يقول عن فوزي المعلوف: "هذا شاعر أحبه، لأنه صادق في التعبير عن حقيقة التجربة الشعرية كما يعيشها ... والصدق وحده هو الذي يجيب إليّ هذا الشاعر النابغ"⁽¹⁾.

وإذا كانت أهمية العواطف والمشاعر التي تعتمد عليها التجربة الشعرية، تكمن لدى الشاعر في قدرته على التعبير عنها، فإن أهميتها بالنسبة للناقد تكمن في قدرته على دراستها وتحليلها، إذ أن أبرز ما يتجه إليه الاهتمام عند تحديد الملامح العامة التي يتميز بها أسلوب الشاعر وطريقته في الصياغة والأداء "هو دراسة العواطف التي تعتمد عليها تجربته الشعرية، وتحليل هذه المشاعر، ومكانتها من الذاتية والجماعية، ومن نصيبها من العمق والتلون والتنوع، وغلبة اللذة أو الألم على حياته الوجدانية"⁽²⁾.

ولا يختلف الأمر عند التليسي في أهمية النظر لعاطفة الشاعر من قبل الناقد إذا كان يريد تصنيف الشاعر، وتحديد مكانه في تاريخ الشعر العربي، فهذا لا يتم "إلا بالنظر إليه في مجموع أعماله، في لحظاته القوية العامرة بالشعور والحياة ولحظاته الضعيفة الباهتة الخالية من كل عاطفة وشعور"⁽³⁾.

وهذا المنهج اعتمد عليه التليسي في دراسته عن الشابي، وبذلك كان صادقاً مع نفسه، ومع قرائه ومتابعيه، فقد كانت العاطفة معلماً بارزاً فيما وصف به الشابي وشخصيته، وما قرره بشأنه.

فالشابي عند التليسي شاعر مجدد، وتجديده لا يدين به لأحد " وإنما هو من وحي فطرته، وشخصيته العميقة، وخياله البعيد المدى، وعاطفته المتنوعة الملتهبة"⁽⁴⁾. وهو عنده شاعر عظيم متفوق، ومظهر التفوق في كل شاعر عظيم "هو أن تستطيع التعرف على شخصيته من شعره، وأن تخرج من قراءتك له بنموذج تحس فيه خفقة الحياة، وفي هذا الإطار يقف الشابي شاعراً متفرداً بخصائصه الذاتية، واضحا بعواطفه وأفكاره"⁽⁵⁾.

وشخصية الشابي، هي في حين "شخصية عاطفية انفعالية، ومن هنا تخضع نظراتها في الحياة إلى لحظات الانفعال ونوعه"⁽⁶⁾. وفي حين ثان "كانت شخصية رومانسية، نزاعة إلى المثالية في كل شيء، مؤمنة بالعاطفة

(1) من الحصاد الأول، ص 168 . 169.

(2) رفيق شاعر الوطن، ص 65.

(3) رفيق شاعر الوطن، ص 82.

(4) الشابي وجبران، ص 165.

(5) نفسه، ص 34.

(6) نفسه، ص 89.

مستخفة بالعقل"⁽¹⁾. بينما هي في حين ثالث شخصية "رومانسية وعميقة، وذات خيال فسيح وعاطفة متنوعة"⁽²⁾.

فالعاطفة عند الشابي على رأي التليسي لم تكن شيئاً هامشياً لا قيمة له، أو أنها مجرد حالة من حالات نفسه، أو صفة من صفاتها، وإنما هي معلم بارز من معالم حياته، ومكوّن أساسي من مكونات شخصيته، فقد "كانت العاطفة كل شيء في حيات هذا الشاعر الرومانسي، وكانت يقظة إحساسه، رسالته التي عاش من أجلها"⁽³⁾. بل إن هذه العاطفة، وهذا الإحساس، كانا سبب شقائه في الدنيا، فهو على رأي التليسي "ما شقي في الحياة إلا برقة إحساسه، ويقظة عواطفه"⁽⁴⁾.

فهذه الصفات التي وصف بها التليسي الشابي، وهذا الإطرء الذي أسبغه عليه، كانت العاطفة ركناً أساسياً فيه، مما يؤكد أهمية العاطفة في الشعر عنده، وأنها تمثل عنصراً أساسياً لا غنى عنه، مهما كانت صفة هذه العاطفة، ومهما كانت طبيعتها التي تجلت بها، فعاطفة الشابي حسبما جاء في هذه النصوص، هي عاطفة متنوعة، وملتهبة، ومختلفة، ويقظة، وواضحة، ومصحوبة بالانفعال، ومتجذرة في النفس.

ومع ذلك، فإن اعتبار العواطف مكوناً أساسياً من مكونات الصفات التي وصف بها الشعر والشاعر، أو ركيزة أساسية من الركائز التي اعتمد عليها في اتصاف الشعر أو الشاعر بهذه الصفات، يدل على أن العواطف تمثل لديه عنصراً جوهرياً من عناصر مفهوم الشعر، سواء عبر عنها بشكل صريح، أو عبر عنها بما هو وثيق الصلة بها؛ كالمشاعر، أو الأحاسيس، أو الخواج، أو الانفعالات، أو اللحظات النفسية، أو الدفقات الوجدانية.

وتجدر الإشارة إلى إمكانية وجود تناقض في رؤية التليسي للشاعر الفذ؛ فهو، في كلامه عن الشابي، يؤكد عظمته لكننا نعرف أن الشابي توفي في عمر قصير جداً، و من ثم لم يمكنه الزمان من اكتساب و نيل الثقافة الكبيرة و الشاملة، التي تتطلب عمراً مديداً من القراءة، فالتليسي يقول: "والزعم بأن الشعر أو الفن لا يحتاج إلى ثقافة شاملة، وتزود بالمعرفة والخبرة الإنسانية، زعم باطل لا يدل إلا على فساد في الفكر، فالإلهام كما يؤكد علم النفس مشروط بالتزود بالثقافة العميقة"⁽⁵⁾، و هنا محل التناقض.

(1). الشابي وجبران، ص118.

(2). نفسه، ص154.

(3). نفسه، ص42.

(4). نفسه، ص96.

(5). من الحصاد الأول، ص125.

المبحث الثاني . العاطفة وعناصر الشعر :

عناصر الشعر ومكوناته الأساسية متنوعة ومختلفة، وذلك تبعاً لتنوع الاتجاهات والمذاهب الأدبية واختلافها، وما يهمنا في هذا السياق، هو العناصر التي تعرض التليسي لعلاقتها بالعاطفة، وهي: اللغة، والموسيقى، والعقل، ومعاني الشعر وأغراضه.

1 . العاطفة ولغة الشعر :

اللغة هي المادة الأولية التي يصاغ بها الشعر، وهي التي تتمثل من خلالها بقية عناصره، ويمكن القول بأن الشعر هو فن لغوي بالأساس قبل كل شيء، إذ لا يوجد شيء اسمه شعر دون اللغة، سواء أكان هذا الشعر جميلاً أم كان قبيحاً.

واللغة بألفاظها وتراكيبها، هي أداة التعبير عن العاطفة، وهي التي من خلالها يحكم على الشاعر بنجاحه في التعبير عن عواطفه، أو إخفاقه في التعبير عنها، وبجراحة عواطفه، أو ببرودتها.

وبما أن اللغة سواء من حيث الألفاظ أو من حيث العبارات، توصف بأنها سهلة وعذبة وبسيطة وواضحة ومبتذلة وصعبة ومعقدة وطنانة ورنانة... إلخ، فإن التليسي لا يهتم ما اتصفت به لغة الشعر من هذه الأوصاف، وإنما الذي يهتم منها تأديتها للمعاني والأفكار والعواطف في يسر وسلاسة، فالشعر عنده لا يكون بألفاظ وعبارات محددة دون غيرها، وإنما يكون بجميع الألفاظ والعبارات ما دامت روح الشعر تمثلت من خلالها.

فالشعر الحديث عنده لا يقلل من قيمته "توخيه السهولة والعذوبة والبساطة في التعبير، كما لا تزيده قدراً الألفاظ الطنانة الرنانة، فالشعر ليس بألفاظه ولا بأوزانه ولكنه بشيء اسمه الروح"⁽¹⁾.

والألفاظ عنده ليست عناصر جامدة لا روح فيها ولا حياة، وإنما هي عناصر حية، مشحونة بالعواطف والأفكار، لا يضير وصفها بأي صفة مادامت عبرت عن العواطف والأفكار أو أثارتها.

فعند تعرضه لاتهم بعض الأدباء المحدثين الشعراء بالجنوح إلى الألفاظ البسيطة المتداولة، سعياً وراء البساطة، رأى أن هذه الدعوة صحيحة إذا نظرنا إلى الألفاظ نظرة مادية، وإلى الشعر كفن يعيش على ذوق طبقة من الناس، وغير صحيحة إذا كانت البساطة دنو من الحياة والناس، في سبيل إيجاد طبقة تتذوق روائع الشعر" وغير صحيحة إذا نظرنا إلى الألفاظ نظرات نفسية باعتبارها كائنات حية، تموج بالعواطف، وتشع بالأفكار، فاللفظة عند الشاعر تتخذ صيغتين: صبغة موسيقية بما تثيره من أجواء سحرية بعذوبتها وسلاستها،

(1) رحلة عبر الكلمات، ص 134.

وصبغة تصويرية بما تحدّثه من صور فتانة متسلسلة عن طريق تداعي المعاني، فإذا أدت ذلك فلا يغض من شأنها إذا كانت بسيطة أو متداولة⁽¹⁾.

وكما لا عبرة ببساطة الألفاظ أو تداولها عند التليسي ما دامت أدت الغرض، فلا عبرة لديه أيضا بكثرة الألفاظ أو بالبراعة في التلاعب بها، فهو يرى أن أعظم ما يلاحظ على الشعر المعاصر، رجوعه إلى البساطة الأولى التي كان عليها في العصور المتقدمة، وتخلصه من قيود الصناعة اللفظية التي جعلته صناعة بعد أن كان فنا يقصد لذاته، مع حرصه على جمال الأسلوب، ونصاعة العبارة، وسمو المعنى، كما يرى أن نجاح "الشاعر المعاصر لا يقاس بكثرة ألفاظه وتلاعبه بها، بل يقاس بطريقة أدائه عن شعوره أداء حرا لا أمت فيه ولا عوج"⁽²⁾.

ومعرفة قيمة الشاعر وشعره، تتحدد عند التليسي من خلال اللغة، فإذا أردت معرفة هذه القيمة "فانظر إذا كانت ألفاظه تؤدي عن معانيه، وتبين عن أفكاره، وتنساب فيها روحه انسياب الشعاع الرقيق في الليالي الدامسة، فإذا وجدت عواطفه حرة منطلقة ترفرف خلال شعره، فثق إنه شاعر رغم كل مغالط، ورغم كل حسود"⁽³⁾.

ومقياس نجاح الشاعر يقاس عنده بمدى جمال ما خلد من شعره، والتعمق "في دراسة ديوان الشعر العربي يؤكد لنا أن أجمل ما خلد فيه هي التي كانت مساحة الكلمة فيه بمساحة الانفعال"⁽⁴⁾.

وإعجاب التليسي بالشابي، يقوم في أحد جوانبه على لغته الشعرية، القائمة على العاطفة المتقدمة، فهو كثيرا ما وقف حائرا أمام روعة أسلوبه، وتساءل عن القوة التي تسري في ألفاظه ومعانيه، المتمثلة في أناقة التعبير وأصالته، وبعده عن النثرية السطحية، وانسياب أسلوبه ورضانته، وتدقيقه في سماحة ويسر كل تلك الصفات لا ينالها من وجهة نظر التليسي "إلا من عاش معنى اللفظ، وأحس بما فيه من رصيد شعوري، لا يقوم على الرنين اللفظي الذي يأسر الآذان، ولكنه يقوم على العاطفة المتقدمة التي تنفذ إلى أعماق الوجدان"⁽⁵⁾.

أي: أن ما يوصف به الأسلوب من روعة، وانسياب وتدقيق في سماحة ويسر، وما يوصف به التعبير من رصانة وأصالة، وبعده عن النثرية السطحية، إنما يقوم على العاطفة المتقدمة، وليس على كثرة الألفاظ الطنانة الرنانة، أو الفخمة الجزلة، أو على قدرة الشاعر في تركيبها والتلاعب بها.

(1) رحلة عبر الكلمات، ص145.

(2) نفسه.

(3) نفسه، ص134 . 135.

(4) المختارات، ص69.

(5) الشابي وحبيران، ص101.

ويتبنى التليسي الرأي الذي يرجع الاختلاف في تقدير المعاني والألفاظ، إلى الاختلاف النفسي في تركيب الشخصية، والاختلاف بين العاطفة والعقل، أو بين الحكمة والفن.

فعند تناوله لهذه القضية، عرض بعضاً من أقوال القدماء حول علاقة اللفظ بالمعنى، وأهمية كل منهما، ورأى أنها على ما فيها، تعبر عن آراء قائلها أكثر مما تحدد المشكلة لتوجد الحل، ومن ثم عرض وجهة نظر النقد الحديث المقام على أسس الدراسات النفسية، المتمثل في أن "الاختلاف في تقدير المعاني والألفاظ، ناشئ عن الاختلاف في تركيب الشخصية النفسي، هو اختلاف بين العاطفة والعقل، أو اختلاف بين الحكمة والفن، فعلى ذلك صح ما يقال من أن الأسلوب هو الشخصية، وبمكنتك بواسطته أن تغوص على سريرة كاتبه، وتعمق في أغواره، وتلم بكل خلجاته ونوازه"⁽¹⁾.

2. العاطفة وموسيقى الشعر:

تمثل الموسيقى الشعرية عنصراً من عناصر الشعر الشكلية، التي يتمثل من خلالها المضمون الشعري، وهي لدى بعض النقاد مقياس من المقاييس التي يتميز بها الشعر عن النثر⁽²⁾. وموسيقى الشعر نوعان: موسيقى خارجية تتمثل في الوزن والقافية، وموسيقى داخلية تتمثل فيما ترسله الألفاظ من إيقاعات ونغمات لها تأثيرها في تقديم المضمون الشعري أو الإيجاء به.

ومع أن العديد من النقاد، في القديم والحديث، يعتبرون الوزن عنصراً أساسياً في الشعر، وخاصة من خواصه التي يتميز بها عن النثر، فإن التليسي لا يعتقد ذلك، إذ يرى خطأ من يقابلون الشعر بالنثر، لأن النثر من وجهة نظره "لا يقابله الشعر، ولكن يقابله النظم، فكثير من النثر شعر يهز القلوب، وكثير من الشعر نظم يصيب الآذان بالوقر، ويحيل الأفتدة إلى حجر"⁽³⁾.

وهذا لا يعني أن التليسي يهمل الوزن الشعري وبخاصة إذا كان متوافقاً مع العاطفة أو معبراً عنها، وإنما لا يراه مقياساً وحيداً للتمييز بين الشعر والنثر.

فهو يربط بين الوزن الشعري والعاطفة الشعرية، ويرى أن الصلة بينهما وثيقة، لأن العاطفة هي التي تحدد للشاعر الوزن الذي يلائم التعبير عنها، لكون الأوزان متعددة ومختلفة "فهناك أوزان خاصة تلائم حركات نفسية خاصة، فمنها ما يلائم الحماسة المتدفقة وما يتبعها من عواطف نائرة، هائجة، ناقمة، ساخطة، ومنها ما يلائم

(1) رحلة عبر الكلمات، ص 144.

(2) ينظر: الأدب وفنونه، محمد مندور، نغمة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، ص 24. 35.

(3) رحلة عبر الكلمات، ص 131.

الشحن والأسى وما يتبعها من عواطف واجمة، هادئة، هامسة، تتسرب إلى القلوب في رفق، وتحتل الفكر في أناة"⁽¹⁾.

ويضرب التليسي مثالا على ذلك بأوزان البحر الطويل، والوافر، والمقتضب، إذ يرى أن مما "يصلح لأكثر الأغراض (البحر الطويل) حيث تستريح النفس الشاعرة، وتنسبط انبساطا كاملا، لتمكنها من التعبير بحرية وبساطة، ومما يصلح للحماسة والتقريع والتنديد (الوافر والمقتضب) وهما وزنان هذاران، تثب فيهما العاطفة وثبا، ويرتفعان وينخفضان تبعاً لارتفاع العاطفة وانخفاضها"⁽²⁾.

ويبدو أن التليسي في ربط الأوزان الشعرية بالعاطفة كان متأثراً بما قاله حازم القرطاجني منذ مئات السنين في ربط الأوزان بالأغراض الشعرية⁽³⁾.

ويرى التليسي أن ظاهرة ربط العاطفة بالوزن، متمثلة بشكل واضح عند الشابي وفي مختلف قصائده، فهو "موفق كل التوفيق في اختيار الأوزان التي تلائم عواطفه، وتسبغ على تعابيره من الموسيقى العميقة"⁽⁴⁾.

ولا يختلف موقف التليسي في ربط الموسيقى الداخلية بالعاطفة، عن موقفه في ربط الموسيقى الخارجية بها، فهو يعتبر الموسيقى الداخلية من أسرار الصياغة الشعرية الموسيقية التي لا يدركها إلا من ألفت أذنه سماع روائعها في الشعر العربي القديم والحديث، ومن ثم "فهو لا يأخذ بدلالة الألفاظ الباهتة ومعانيها الواضحة، وتركيباتها العامة، وإنما يبحث عن هذه الأجواء التي تشع من خلال الألفاظ، فترسم ظلالاً، وترسل نغمات نفسية، وإيقاعات موسيقية عميقة، وتفتح للخيال والشعور آفاق جديدة يعيش فيها الوجدان لحظات رائعة من عمره، وتمتلى جناباته بتجربة إنسانية عميقة، تضيف ثروة نفسية، ترفع من ذوقه، وتعمق من إحساسه"⁽⁵⁾.

وفي دراسته لأسلوب الشابي الذي كان التليسي معجبا بقوته، التي يرى أنها "ليست في ألفاظه، رغم براعته في استخدامها، ورغم ثروته من الألفاظ اللونية والصوتية التي يستعملها في براعة الرسام النابغ، والموسيقي العبقري، ولكنها في قوة إحساسه... وقوة الإحساس كل شيء في فنه وشاعريته، هي التي تخلق ألفاظه ومعانيه المتمردة في مواضع السخط والتمرد، وهي التي تتدفق بالألفاظ اللينة الوديعة في مواضع اللين والضراعة"⁽⁶⁾.

(1). رحلة عبر الكلمات، ص 146.

(2). نفسه.

(3). ينظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986م، ص 265. 270.

(4). الشابي وجبران، ص 102. 103.

(5). رفيق شاعر الوطن، ص 79.

(6). الشابي وجبران، ص 102.

3. العاطفة والعقل:

تعرض التليسي إلى علاقة العاطفة بالعقل في معرض اهتمامه بالعاطفة والتأكيد عليها، وهي علاقة دار حولها الكثير من الجدل والاختلاف بين الأدباء والنقاد، وبخاصة بين أنصار المذهب الكلاسيكي، وأنصار المذهب الرومانسي.

فإذا كان المذهب الكلاسيكي يدعو إلى إمامة العقل، وسيطرته على العاطفة وكبح جماحها لأجل التعبير الصقيل الواضح، فإن المذهب الرومانسي يدعو إلى هدم أركان العقل، وطغيان العاطفة عليه، وتحرير النفس من رقة المنطقي والعقلي⁽¹⁾.

ويرى التليسي أن لا قيمة للحياة، ولا طعم لها، في حال ما إذا سيطر العقل على العاطفة، وأن العاطفة مقدمة عليه، وأن سلطانها أقوى من سلطانه.

فهو من ناحية، يعتقد أن "الحياة لا تستقيم إذا أودى العقل بالوجدان، ولا تعذب إذا خمدت العواطف، وسكنت الاهتزازات للبسمة المشرقة في فم الحسناء، والطهارة الخجولة في فم العذراء، والجمال الموزع بين الأرض والسماء"⁽²⁾. وهو من ناحية ثانية، يؤكد على أهمية العاطفة، وعدم الاستهانة بها، ويقدمها على العقل مهما بلغ نضجه. يقول: "وما زال سلطان العاطفة أقوى من سلطان العقل، ولو بلغ أقصى موضوعية يمكن إدراكها، فلا سبيل إذا إلى استهجان منطقتها عند الشعراء وفي الشعر، لأنها تمنحنا لذة فنية لا يدركها العلم بتجريده"⁽³⁾.

ويربط التليسي النبوغ في الشعر أو في الفن بعامته، بخضوع الشاعر أو الفنان لعواطفه، وعدم سيطرة العقل عليه، هذا النبوغ الذي يغفر للشاعر أو الفنان ما تتسم به شخصيته من مظاهر الشذوذ والغرابة والغرور، فتجعله محببا للناس "فتصور لهم فيه المثال الذي كانوا يطمحون إليه، ولم يستطيعوا تحقيقه لنقص في عواطفهم، أو لسيطرة الجانب العقلي على أوضاعهم وتصرفاتهم، أما الفنان فلا يخضع لغير عواطفه، ولا يستجيب لغير أحاسيسه"⁽⁴⁾.

وتقدم التليسي العاطفة على العقل، واعتبار سلطانها أقوى من سلطان العقل، يعبر عن تبني مفاهيم المدرسة الرومانسية وقيمها، أو على أقل تقدير ميوله لها، فهو يدرك تباين وجهة النظر بين المدرستين بشأن علاقة العاطفة بالعقل، وهذا ثابت في كتاباته.

(1) ينظر: في النقد الأدبي، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1986م، 15/5.

(2) رحلة عبر الكلمات، ص131.

(3) نفسه.

(4) من الحصاد الأول، ص167.

فالمدرسة الكلاسيكية أوالتقليدية كما يطلق عليها في أغلب الأحيان " لم ترجع إلى العاطفة، ولم تحاول المبالغة في أهميتها، والاستيحاء منها، إلا في القليل النادر، فقد تميزت أغلب تجاربها بسيطرة العقل الواعي عليها، ولم تستلهم عواطفها الذاتية، كما لم تسع إلى التعبير عنها إلا في حالات نادرة، وفي إطار الوصف الخارجي للظاهرة التي تبعث على قول الشعر"⁽¹⁾.

بينما المدرسة الرومانسية أو الرومانطيقية كما يطلق عليها في بعض الأحيان "كانت ثورة على النزعة العقلية الفلسفية في القرن الثامن العاشر، ذلك القرن الذي شاع فيه الإيمان بالعقل، والإعجاب بقدرته على اكتشاف الحقائق المجهولة وإدراكها، وتفهم أسرار الحياة، فكان المذهب الرومانطيسي ردا فعليا قويا على الجفاف العقلي وانصرافا كاملا إلى العاطفة، وإيمانا عميقا بقدرتها على إدراك أسرار الوجود"⁽²⁾.

وهو يدرك أيضا أن العقل والعاطفة هما الأساس في نسبة الشاعر إلى إحدى المدرستين، فالزهاوي مثلا، هو من أعلام المدرسة الكلاسيكية العربية، كان "شاعرا عقليا، طغت عليه النزعة التعليمية في الشعر، فبعد شعره عن حرارة العاطفة"⁽³⁾. بينما كانت شخصية الشابي، وهو من أعلام المدرسة الرومانسية العربية "شخصية رومانسية، نزاعة إلى المثالية في كل شيء، مؤمنة بالعاطفة، مستخفة بالعقل"⁽⁴⁾.

4. العاطفة ومعاني الشعر وموضوعاته:

علاقة العاطفة بعناصر الشعر، لا تنحصر في علاقتها بعناصر الشكل، وإنما تتجاوزها إلى معاني الشعر وموضوعاته المختلفة، وهي التي تشكل مع العاطفة عنصري المضمون.

ومعاني الشعر وموضوعاته التي تبنت من خلال كلام التليسي، والتي كان لها علاقة بالعاطفة الشعرية، هي: الحياة، والوطنية، والطبيعة، والمرأة.

1. العاطفة والوطنية:

الشعر الوطني عند التليسي، تعلق قيمته وبلغ تأثيره، إذا كان مفعما بالعاطفة، وتنخفض قيمته ويقل تأثيره، إذا لم يكن كذلك، وقد تنفى عنه صفة الشعر إذا لم يكن كذلك، وهذا الأساس هو الذي اعتمد عليه في حكمه بالجودة على قصيدة الشاعر أحمد رفيق المهدي (ودعا أيها الوطن المهدى)⁽⁵⁾، التي قالها في حب

(1). رفيق شاعر الوطن، ص 65. 66.

(2). الشابي وجبران، ص 43.

(3). رفيق شاعر الوطن، ص 52.

(4). الشابي وجبران، ص 118. 119.

(5). ينظر: ديوان شاعر الوطن الكبير أحمد رفيق المهدي للفترة الثالثة المطبوعة الأهلية، بنغازي، 1382هـ. 1962م، ص 5453.

الوطن والحنين إليه، لكونها جاءت "وثيقة فنية رائعة الدلالة على هذا الحب ... فهي بجوها الوجداني العميق، وانفعالاتها الحارة كافية للتعبير عن هذه العاطفة التي حملها لوطنه، والتي جعلت من هجرته وخروجه تجربة أليمة عاشها الشاعر في حزن وأسف ومرارة، وعبر عنها في وجدانية أصيلة فريدة"⁽¹⁾.

بينما نفى صفة الشعر عن قصيدة (الدكتاتورية) لكونها "لا شيء فيها من الانفعال ولا من الشعر، وقد صدرت عن العقل الواعي، ولم تصدر عن الشعور الفياض، أو الإحساس الشعري، إنها قطعة عقلية، ذات دلالة ذهنية واضحة، ولكن لا مكان فيها للعاطفة أو الشعور ... إنها فكرة طيبة، ووجهة نظر سياسية صائبة، أما الشعر، فلا تمت إليه بقراءة، ولا تصلها به رابطة"⁽²⁾.

ب. العاطفة والطبيعة:

شعر الطبيعة، مهما بلغ الشاعر في إتقانه، ومهما تفنن في وصف أو تصوير عناصر الطبيعة، ومظاهرها المختلفة، فلا قيمة له عند التليسي ما لم يسبغ عليه الشاعر شيئاً من عواطفه.

فهو يدعو إلى التعامل الوجداني مع الطبيعة، ووصفها وصفا وجدانياً، ويرى أن الشعراء العرب قد وصفوا الطبيعة وصفاً نقلياً، ولولا الومضات التي تشع من قصائد البحري وابن الرومي، وأبي تمام "لأمكن الحكم بخلو الشعر العربي من الوصف الوجداني للطبيعة، الذي يتعاطف فيه الشاعر مع الطبيعة فيفيض عليها من عواطفه، ويبعثها أمامنا حية، نابضة متحركة"⁽³⁾.

ويرى التليسي أن وصف رفيق للطبيعة، لا يشعر القارئ بأي صلة روحية، ولا يملأ النفس بأي دفقة وجدانية ويضرب مثالا على ذلك قصيدته في (درنة) التي نلتقي فيها "بهذا الوصف التحديدي الواقعي، الذي يشبه المسح الجغرافي، أو انطباعات الرحالين القدماء، ولا تشعر بأية عاطفة عميقة، أو انفعال قوي، ولا يجري في أعطاف هذه القصيدة، أي بوح وجداني، أو تشويهاً قدرة خيالية"⁽⁴⁾.

والشابي من ناحية علاقة العاطفة بوصف الطبيعة في شعره عند التليسي يختلف عن رفيق، فالطبيعة في قصيدته (صلوات في هيكل الحب)⁽⁵⁾ ليست كالطبيعة في قصيدة رفيق في (درنة)⁽⁶⁾ لأن الشابي إذا تأمل المشهد الطبيعي "أضفى عليه إحساسه وآلامه"⁽¹⁾.

(1) رفيق شاعر الوطن، ص 135.

(2) نفسه، ص 77. وينظر: ديوان شاعر الوطن الكبير أحمد رفيق المهدي، الفترة الرابعة، ص 127.128.

(3) نفسه، ص 152.

(4) نفسه، ص 165.

(5) . ينظر: ديوان أبي القاسم الشابي، قدم له وشرحه: أحمد حسن بسبح، دار الكتب العلمية، بيروت، 1426 هـ. 2005م، ص 61.60.

(6) ينظر: ديوان شاعر الوطن الكبير أحمد رفيق المهدي للفترة الثالثة، ص 45.42.

والقراءة الواعية لقصيدته (صلوات في هيكل الحب) تؤكد "أنه كان يعيش شعره بكامل أحاسيسه، وأنه لشدة حبه للطبيعة، يكاد يذوب في جمالها السرمدي، ويغلب على صاحب هذا المزاج الرومانسي الذي يعبد الطبيعة، أن يتخذ من مظاهرها وسيلة للتعبير عما في نفسه، فهي ليست منفصلة عنه، وإنما نراها خلال آلامه وأفراحه"⁽²⁾.

ج . العاطفة والمرأة:

علاقة العاطفة بموضوع المرأة في الشعر عند التليسي، هي أقوى من علاقتها ببقية معاني الشعر وموضوعاته، لأن المرأة هي نبع العاطفة، وعلاقة الرجل بها هي في الأساس تقوم على عاطفة الحب، سواء أكانت هذه المرأة عشيقه، أم زوجة، أم أما، أم أختا، أم بنتا، بل إن التليسي يؤكد على أهمية أن تكون هذه العاطفة صادقة وليست متكلفة أو متصنعة.

وصدق العاطفة في حب المرأة، تجلى لدى التليسي في شعر العذريين، فهو الذي "اتسم بطابع الدلالة على النزاهة، والإخلاص في الحب، وصدق العاطفة، وحرارة الصباية، وشدة الشوق، والتوحيد في الحب"⁽³⁾.

وهذا النوع من الغزل على رأي التليسي، قد تجده في بعض الصور الغزلية للمتنبي، وقد لا تجده، ففي شعره صور "غزلية بعضها ظاهر التعمّل، واضح التكلّف، لأنه غير صادر عن عاطفة صادقة، وبعضها عذب مقبول، لأنك تحس فيه خفقة القلب الجريح"⁽⁴⁾.

وهذا يختلف عما كان عليه حال المرأة في شعر بشار بن برد، الذي كان شعره في المرأة على رأي التليسي خال من أي عاطفة صادقة، وحتى شعره في عبدة وشغفه بها "لا يمثل العاطفة الصادقة، بل الشاحبة الهزيلة، التي يسترها أحيانا بمبالغات الكاذبة"⁽⁵⁾.

ويرى التليسي أن علاقة العاطفة بالمرأة لدى الشعراء بقت على حالها في الشعر العربي كما كانت في العصر العباسي، ولم تتغير تغيرا جوهريا إلا في العصر الحديث، على يد شعراء المدرسة الرومانسية، من أمثال جبران والشابي وغيرهما.

(1) الشابي وجبران، ص76.

(2) نفسه، ص77.

(3) من الحصاد الأول، ص188.

(4) نفسه، ص212.

(5) نفسه، ص204.

فجبران "لا يقف عند المظاهر المادية للمرأة أو الجمال الجسدي، وإنما يمضي إلى الأعماق، إلى خلجات النفوس، واهتزازات العواطف"⁽¹⁾. والشابي عاش في خياله مع المرأة "التي أقامها، إلهة يرتل في هيكلها المقدس تسايحه وصلواته الحارة، صلوات فيها الضراعة والبكاء والحسرة على المجتمع الكافر بالقيم الرفيعة"⁽²⁾.

د. العاطفة والحياة:

إن نضج العاطفة الشعرية وتطورها عند التليسي، مرتبط بنضج الشعر وتطوره، ونضج الشعر وتطوره، مرتبط عنده بتطور الحياة.

فالشعر عند التليسي لا يلزم حالة واحدة كما يتصور البعض، وإنما يتطور وينضج بتطور الحياة وانعكاسها على عواطف الإنسان "فيعبر عن العواطف البسيطة البدائية في دور البساطة والبداءة، كما حدث للشعر الجاهلي، وينضج في طور الحضارة واكتمال نمو الفكر، ويجفل حينئذ بالومضات الفكرية الملقعة بغلالة العواطف الرقيقة"⁽³⁾.

والتجديد في الشعر عند التليسي، له صلة بتصوير الحياة والتعبير عن العواطف، فهو يعتمد على ركنين: ثورة على المضمون، وثورة على الصياغة، فالثورة على المضمون تعني التحول "من التغني بأبجدات الطبقات، إلى تصوير الحياة، والتعبير عن العواطف الأصيلة الخالدة في الإنسان"⁽⁴⁾.

والأدب المهجري عند التليسي، هو لون من ألوان الأدب الرومانسي، له أثره في النهضة الأدبية المعاصرة، المتمثل في تصحيح معنى الأدب، وانتشاله من الحالة التي كان عليها "بأن أرشده إلى المعاني الجديدة، وزاد من اتصاله بالحياة، فكان معبرا عن الشعور الصادق، ومصورا للعواطف الإنسانية الخالدة في مختلف جوانبها"⁽⁵⁾.

إن أهمية العاطفة في الشعر عند التليسي، لا تعني مجرد تعبير الشاعر عن عواطفه الخاصة، وإنما تشمل التعبير عن العواطف الإنسانية المشتركة بين بني البشر، الذين يشاركونهم الحياة في هذا الكون الفسيح.

فهو يؤكد على أهمية هذه العواطف في معرض رده على زعم الناقلين على الشعر، في كونه لا يعبر إلا على العواطف الساذجة، ويتساءل مسقفا هذا الزعم، وأنه من التفاهة بحيث لا يحتاج إلى دليل على بطلانه: "إذا كان الحب بمعناه العام الذي يشمل حب الأم، وحب الوطن، وحب الناس لبعضهم، وحب الحياة، وحب

(1) الشابي وجبران، ص 132.

(2) نفسه، ص 121.

(3) رحلة عبر الكلمات، ص 130.

(4) الشابي وجبران، ص 17.

(5) نفسه، ص 129.

الجمال، وحب الخير والفضيلة والعدالة والإخلاص والصدقة والطهارة والوداعة والوفاء والصدق، إذا كان هذا الحب وأمثاله من العواطف الساذجة، فمرحى مرحى أيتها الساذجة، لأنك أنت القيم الروحية التي يحرص عليها كل إنسان، فترفعه عن عالم الحيوان، وإلى الجحيم أيتها الحقائق الجافة"⁽¹⁾.

بل إن قيمة الإنسان والحياة من وجهة نظر التليسي لا تتحدد إلا من خلال العواطف. فهو يتساءل في دهشة "ما قيمة الحياة إذا أقفرت من هذه العواطف، وما قيمة الإنسان إذا جفت فيه ينابيعها؟"⁽²⁾.

إن الحماس الذي يبديه التليسي في الدفاع عن العاطفة والتأكيد على أهميتها، ليس في الشعر فحسب، وإنما في مختلف جوانب الحياة، ينقله أحيانا من خانة الناقد إلى خانة المصلح، ويؤكد مدى تمكن هذه الفكرة من نفسه، وتغلغلها في أعماقه، مما يحيلها أحيانا من قيمة شعرية إلى قيمة إنسانية.

وعلى الرغم من دفاع التليسي عن العاطفة، والتأكيد على أهميتها في سياقات مختلفة، إلا أنه لم يقيم بتعريف هذه العاطفة، أو تحديد مقاييسها في الشعر، بل إنه لم يقيم بتقديم تعريف جامع مانع للشعر حدد به ماهيته وخصائصه التي يتميز بها عن بقية الأنواع الأدبية، وذلك على الرغم من تعدد كتاباته عن الشعر وتنوعها، وتعرضه للعديد من قضاياها، وهذا لا يدل على عدم قدرته على ذلك، لكنه يدل على أنه لم يكن معنيا به، وهذا يؤكد ما ذهب إليه محمود قاسم من أن التليسي "ليست له نظرية في نقد الشعر، ولم يسع إلى ذلك، وباعتباره متذوقا، فإن ما كتبه هو بمثابة آراء في الشعر، وتقسيم له، وإلقاء الضوء على ما يكتب عنه، وهي آراء تعبر عن عقلية موسوعية، عاشقة للشعر، متميزة به، متأثرة بالجد منه والمتطور"⁽³⁾.

النتائج:

أخيرا وبعد هذا العرض والتحليل، فإنه يمكن تسجيل النتائج التالية:

- تمثل العاطفة الشعرية عنصرا جوهريا من عناصر الشعر، ومكونا أساسيا من مكوناته التي لا يقوم إلا بها، حيث تمثل مع معنى الشعر وموضوعه عنصري المضمون الشعري.
- تأكيد التليسي على أهمية العاطفة الشعرية، وتقديمها على بقية عناصر الشعر الأخرى، ومطالبة الشعراء بضرورة تمثلها في شعرهم.
- لم يكن التليسي معنيا بوضع نظرية في نقد الشعر، بقدر ما كان معنيا بحب الشعر، وتذوقه، والتفاعل معه، ولهذا خلا كلامه عن العاطفة من وضع تعريف لها أو تحديد مقاييسها، وعن الشعر من وضع تعريف حدد به ماهيته، وعناصره التي تميزه عن غيره من الأجناس الأدبية.

(1): رحلة عبر الكلمات، ص 130.

(2): نفسه، ص 130.

(3): خليفة التليسي بالإبداع والمعرفة، محمود قاسم، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1، 1996م، ص 63.

- اعتماد التليسي على العاطفة فيما وصف به الشعر والشعراء من صفات مختلفة، يدل على أنه يعتبر العاطفة عنصراً جوهرياً، ومكوناً أساسياً من مكونات مفهوم الشعر.
- للعاطفة الشعرية عند التليسي صلة وثيقة، وعلاقة متينة، بمختلف عناصر الشعر الأخرى، حتى أن هذه العناصر أصبحت عنده لا تساوي شيئاً في ميزان الشعر دون العاطفة.
- انتماء العاطفة إلى العالم الداخلي للإنسان، وتمثلها في الشعر لا يتأتى إلا من خلال اللغة، والموسيقى، ومعاني الشعر وموضوعاته.
- فقدان المنهجية في كلام التليسي عن العاطفة الشعرية، وطرح آرائه بشأنها، حيث جاء كلامه عنها مبعثراً في كتبه ومقالاته دون تخصيص أو تنظيم.
- مبالغة التليسي في التأكيد على أهمية العاطفة ليس في الشعر فحسب، وإنما في حياة الإنسان وعلاقته بالآخرين.
- ضعف العاطفة الشعرية في الشعر الليبي الفصيح، كانت دافعاً قوياً وراء اهتمام التليسي بالعاطفة، والمبالغة في التأكيد على أهميتها.
- طغيان النزعة الذاتية على النزعة الموضوعية في كلام التليسي عن العاطفة ونقده لها، في بعض الأحيان، حتى أحال خطابه النقدي إلى خطاب حماسي كأنه صادر عن مصلح، أو خطاب عاطفي كأنه صادر عن محب للشعر ومتميم به، وليس ناقداً موضوعياً له.

المصادر والمراجع:

- اتجاهات النقد الأدبي في ليبيا خلال النصف الثاني من القرن العشرين، سالم محمد العواسي، إصدارات مجلس الثقافة العام، سرت، 2010م.
- الأدب والفن، ميشال عاصي، منشورات المكتبة التجارية، بيروت، ط2، 1970م.
- الأدب وفنونه، محمد مندور، نضمة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.
- أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط10، 1994م.
- التعريف بالأدب الليبي، الطاهر بن عريفة، منشورات دار الحكمة، طرابلس، ط1، 1997.
- خليفة التليسي. الإبداع والمعرفة، محمود قاسم، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ط1، 1996م.
- خليفة محمد التليسي ناقداً وأديباً، مصطفى محمد جحيدر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ط1، 1395 و.ر. 1986م.
- دراسات في الأدب، عبد الله القويوي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ط1، 1986م.

- ديوان أبي القاسم الشابي، قدم له وشرحه: أحمد حسن بسبح، دار الكتب العلمية، بيروت، 1426هـ .2005م.
- ديوان شاعر الوطن الكبير أحمد رفيق المهدي الفترة الثالثة المطبعة الأهلية، بنغازي، 1382هـ .1962م.
- رحلة عبر الكلمات، خليفة محمد التليسي، مطابع الثورة العربية، طرابلس، 1974م.
- رفيق شاعر الوطن، خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، طرابلس . تونس، 1988م.
- الشابي وجبران، خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، طرابلس . تونس، ط4، 1398هـ .1978م.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، (أبو محمد عبد الله بن مسلم)، قدم له: الشيخ حسن تميم، راجعه وأعد فهرسه: الشيخ محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط3، 1407هـ .1987م.
- شعرية السرج السابح، سالم العوكلي، منشورات مجلة المؤتمر، طرابلس، ط1، 1370 و.ر. .2002م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن بن رشيق) حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، ط5، 1401هـ .1981م.
- في النقد الأدبي، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1986م.
- في النقد الأدبي، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، القاهرة، 1972م.
- قصيدة البيت الواحد، خليفة محمد التليسي، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1991م.
- لسان العرب، ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، دار صادر، بيروت، ط1، 1410هـ .1990م.
- مختارات خليفة محمد التليسي من روائع الشعر العربي . المفردات .، خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، طرابلس . تونس، 1991م.
- المعجم المفصل في الأدب، محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1419هـ .1999م.
- من الحصاد الأول، خليفة محمد التليسي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ط1، 1398و.ر. .1989م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986م.
- النقد الأدبي الحديث . أصوله واتجاهاته أحمد كمال زكي، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.